# الإنتاج الزراعي (الحبوب، الزيتون، الكروم...)

يتمتع الشمال الأفريقي بنفس الخصائص الطبيعية والمناخية التي تميز باقي بلدان حوض البحر المتوسط مما ساهم في تنوع المحاصيل التي كان ينتجها ؛ فقد أبرز اسطيفان اقزال بالاعتماد على عدة شواهد وأدلة أن مناخ شمال أفريقيا القديم هو مناخ مماثل ومشابه للمناخ السائد في أيامنا هذه فإذا اعتمدنا على استنتاج اسطيفان اقزال فان أفريقيا كانت تنتج محاصيل المنطقة المعتدلة قرب السواحل ومحاصيل البيئة الصحراوية الحارة جنوبا(التمور) وهو ما توافق عليه النصوص التي أخبرتنا بتنوع الإنتاج شمالا من حبوب وأشجار مثمرة وبقول وخضروات وإنتاج للتمور في الصحراء الجنوبية كما اخبرنا به هيرودوت.

فبالإضافة إلى التفوق البحري والمنافسة القرطاجية التي أقلقت الرومان حز في نفسه أن تنتج قرطاج هذه الخيرات النباتية كلها وتستفيد من ثراء الأرض الأفريقية بينما تعجز روما عن ذلك ، لقد اخبرنا القدامى عن التربة الخصبة التي يتميز بها بعض الأقاليم فقد أعجب هيرودوت كثيرا بالتربة السوداء التي يتميز بها إقليم الكينوبس (*Cinyps*) وأشاد بمردودية البذور فيها ونفس الشيء أشار إليه بلين فيما يخص إقليم المزاق (*Byzacium*) الذي قال بشان تربته أنها ذات خصوبة نادرة.

كما لا يمكن اغفال أن إمكانيات أفريقيا الطبيعية هي التي أسالت لعاب كاتون الذي جعل من ثمرة تين أفريقية رمزا لتحريض مجلس الشيوخ الروماني على تدمير قرطاج .

بدأت البحوث الحديثة تزيل الغطاء عن العديد من القضايا التي كانت إلى عهد قريب من ثوابت تاريخ المنطقة ؛ فقد أزال علم الآثار الغطاء عن العديد من المنشآت التي تعود إلى زمن أبعد بكثير من الفترة الرومانية إلى التهيئة الزراعية القديمة لدوار تازبنت (جنوب غرب تبسة) التي أظهرت نوعا من أنواع تنظيم المجال رغم بساطته.

ومن جهة أخري أبدى عدة باحثين تحفظهم من نسب كل الأعمال المتعلقة بالتهيئة والتنظيم الزراعي إلى الفترة الرومانية، فقد أكد شوفاليي (*Chevallier*) بأن المنشآت الهيدروغرافية التي نظمتها روما هي ذات أصل محلي، وأكد جان ديبوا (*J.Depois*)من جهته أن زراعة المدرجات بأفريقيا هي زراعة مرتبطة بحضارة ريفية بربرية ، وفي هذا السياق يقول متأثرا بالعبارة الشهيرة لسطيفان اقزال : إن البربر بالتأكيد لم ينتظروا الرومان لكي يقوموا بزراعة المدرجات والاستعمال الأمثل للمياه الضرورية للزراعة. أما لوفو (*Leveau*)فقد رفض مسألة إرجاع كل الفضل للرومان في تطوير الزراعة بشمال أفريقيا فقد أكد بان الزراعة الرومانية قد قامت على أعمال تهيئة افريقية سابقة لاحتلالهم بكثير حيث يقول: "يظهر بان الزراعة الرومانية قد طورت

على أراض كانت مهيأة في الفترة ما بين النيوليثي والفترة الرومانية بينما ظهرت الفترة الرومانية كفترة استقرار وتوسع أما اقزال فقد اعتبر أن عملية إزالة الأعشاب الضارة والأشجار البرية غير المنتجة من الحقول لتهيئتها للزراعة وهي العملية التي قام بها عدة أجيال من الأفارقة قد هيأت بشكل غامض ازدهار أفريقيا الرومانية، ونفس المؤرخ أكد أن الرومان قد وجدوا أفريقيا في حالة جيدة أحسن مما وجدها عليه نظراؤهم الفرنسيون بعد ذلك بقرون ، لكنه في المقابل لا يهمل توفر عوامل الازدهار خلال عهد الإمبراطورية التي ساهمت في تحقيق التطور.

لم يستفد الرومان في تطويرهم للزراعة بأفريقيا من خصوبة أراضي المنطقة ومن الخبرات واليد العاملة الأفريقية فقط بل تعدى مجال استفادتهم إلى المجال العلمي ونقصد بذلك موسوعة ماغون الفلاحية التي اعتبرها البعض من أهم غنائم الحرب الرومانية على قرطاج فحسب رواية بلين فان مجلس الشيوخ الروماني قد قام بعد سقوط قرطاج بإهداء مكتباتها
للملوك الأفارقة لكنه قرر بصفة استثنائية الاحتفاظ بكتب ماغون الثمانية والعشرون وترجمتها إلى اللاتينية للاستفادة منها في تطوير الزراعة الرومانية رغم أن كاتون المعاصر له قد سبق وان نشر مؤلفات مماثلة في هذا المجال.

إن الفضل الكبير في تطوير الزراعة الرومانية ابتداء من منتصف القرن الثاني قبل الميلاد إنما يعود إلى هذه الموسوعة التي تضمنت نصائح وتوجيهات وشرح لمختلف الطرق والأساليب الزراعية التي تتلاءم والطبيعة الأفريقية، ولم يكن تأثير هذه الموسوعة مقتصرا على الزراعة الرومانية بأفريقيا فقط بل ساهمت أفكار ماغون أيضا – التي هي في الأصل جمع للخبرات الأفريقية- في تطوير الزراعة الايطالية

## 1. زراعة القمح :

عرفت روما القمح الافريقي منذ فترة طويلة قبل احتلالها لشمال افريقيا فقد كانت هناك صفقات تجارية بين روما وقرطاج وبينها وبين الملوك النوميد، ولما أصبح الإقليم البوني مقاطعة رومانية وضعت روما يدها على أراضيها الخصبة، وهي تلك الأراضي التي عرفت تهيئة فلاحية كانت محل اعجاب فلاحي اللاتيوم واغريق صقيلية، كما مكن الاستلاء على نوميديا وموريتانيا تباع، من حصول روما على مساحات إضافية شاسعة عريقة في انتاج هذه المادة الغذائية الهامة، فأصبحت أفريقيا الوجهة المفضلة لروما للتزود بالقمح من اجل تغطية احتياجات سكانها وجيوشها، فبلاد البربر على حد تعبير بيكار التي لا تتمكن من تغطية احتياجاتها اليوم كانت في الماضي إحدى مخازن العالم القديم والأرض الأفريقية بالنسبة للحكام الرومان لم تكن أرضا للتوسع وزيادة الأموال والثراء فحسب ولكن كانت "الأم المغذية ومرساة السلام

الإيطالي فقد ساهمت أفريقيا في حل مشكل نقص الغذاء في ايطاليا حيث كان الأباطرة لا يطمحون لأكثر من تحقيق الاكتفاء الذاتي خلال تلك المرحلة خصوصا ونحن نعلم الخطر الذي قد يشكله نقص الغذاء على الدولة فهو قد يؤدي إلى عدم الاستقرار وقيام اضطرابات هنا وهناك وخاصة في العاصمة روما التي يقال أنه يحكمها من يضمن لها وفرة الغذاء ، فقد كان هذا السبب في مقدمة الأسباب التي أدت بروما إلى التوسع على حساب نوميديا سنةوما تصريح يوليوس قيصر أثناء احتفاله باحتلاله لنوميديا إلا خير دليل على ذلك حيث قال بأنه قد أتي ببلد يستطيع أن يزود روما بمقدار (941111)قنطارا من القمح. ومن العبارات الأكثر تداولا بين الباحثين ذلك الوصف الذي يصف أفريقيا بأنها كانت "أهراء روما" ، وان كان البعض يرى أن في هذا الوصف بعض المغالاة وانه لا يعبر حقيقة عن الحالة التي كانت سائدة حينذاك وإنما يطلق للدلالة على أن أفريقيا قد كانت غنية بالقمح على عكس فقرها في العصر الحديث إلا أن ذلك لا ينفي ثراء أفريقيا وإسهامها الكبير في تزويد روما بما تحتاجه من مواد غذائية طيلة قرون.

رغم تعدد مقاطعات روما التي تشتهر بإنتاجها للقمح على غرار مصر وسردينيا إلا أن أفريقيا احتفظت بأهميتها في تموين روما بهذه المادة الإستراتيجية على الدوام خاصة بعد إنشاء القسطنطينية أين انفردت أفريقيا بتموين العاصمة القديمة روما بعدما كانت تشترك مع مصر في تموينها، فبعد إنشاء القسطنطينية أصبح الإنتاج المصري من القمح يوجه إلى العاصمة الجديدة خلال وبعد حكم قسطنطين وقد كانت أفريقيا قبل ذلك- على عهد اغسطس - تزود روما بحوالي 41مليون مد (Modii)أي حوالي (8511111) هكتولتر من الحبوب ونصف هذه الكمية كان يجلب من مصرأي أن أفريقيا كانت تمون روما بثلثي احتياجاتها وتتكفل مصر بالثلث الباقي، وقد قدر بيكار أن تكون كمية القمح التي تنتج في أفريقيا بأكملها بحوالي 8إلى 51ملايين قنطار خلال فترة حكم نيرون ونشير إلى أن كمية القمح الموجهة إلى روما قد تضاعفت بتزايد التوسع الروماني في المنطقة فقد كانت مقاطعة أفريقيا الجديدة زمن قيصر تمون روما بـ (941111)قنطارا وبعد قرن من ذلك وتحت حكم نيرون أصبحت مقاطعة أفريقيا القديمة والجديدة بالإضافة إلى مقاطعة طرابلس تزود روما بـ (51)أضعاف هذا الرقم.

كان القمح الأفريقي يغطي العجز الذي تعاني منه روما، وحسب القدماء فان روما مجبرة لاستيراده فهذا فارون يقول بأنهم أي الرومان كانوا يدفعون الأموال من اجل أن يجلب لهم القمح الذي يغذيهم من أفريقيا وسردينيا وهذا كلوميل يورد عبارة فيها الكثير من الاستياء والتساؤل لما آلت إليه الأوضاع في ايطاليا حيث اعتبر انه في ارض ايطاليا مع أن الآلهة

علمت لأبنائها الزراعة ، إلا أن أهلها مجبرون لتلافي الموت جوعا إلى جلب القمح من مقاطعات واقعة وراء البحر.

وعن سعر القمح الأفريقي افترض البعض أن يكون سعره منخفضا بالمقاطعات الأفريقية مقارنة بسعره في روما الذي يصل إلى الضعف، وقد قدر ميشال كريسطول أن يكون سعر البوشل أو المد ( modius) في نوميديا في تلك المرحلة حوالي (5,5)سسترس ومن جهة أخرى نشير إلى أن كميات القمح التي توجه إلى روما هي في الأساس عبارة عن ضرائب استخلصت من مختلف مناطق أفريقيا، وقد كان عمال الإمبراطورية على اختلاف مناصبهم هم الذين يشرفون على هذه العملية ابتداء من محصلي الضرائب إلى مسؤولي المقاطعات ووكلاء الإمبراطور وقد حمل الأباطرة مسؤولية الإشراف على عملية التموين هذه ومراقبة سعر القمح في السوق إلى محافظ الانونة (*Præfectus annonæ*) فبعد تحصيل هذه الكميات من أرياف أفريقيا توجه إلى المخازن المقامة خاصة بالقرب من الموانئ المهمة تمهيدا لإرسالها إلى روما بعد أن يتأكد الموظفون بان هذه الحبوب صافية وسليمة ويمنع على الموظفين تحويل جزء من القمح المخصص لروما مهما كانت كميته إلى وجهة أخرى

## خصائص القمح الأفريقي :

كان للقمح الأفريقي خلال تلك المرحلة شهرة كبيرة ، فقد اخبرنا بلين أن القمح الأفريقي كان ذائع الصيت وكان ثالث أنواع القمح المعروفة في عصره وانه قمح صلب وثقيل وانه أفضل أنواع القمح لإنتاج السميد ونفس المؤرخ اخبرنا عن المردودية المدهشة لهذا القمح فقد ذكر بأنها تتراوح بين 511إلى 551للحبة الواحدة ومما وصلنا أيضا من الأخبار أن مسير دومان اغسطس قد بعث إليه بسيقان سنابل تحمل 411حبة كلها خرجت من حبة مستنبتة واحدة كان القمح ينتج بالسهول خاصة القريبة من السواحل، وكان القمح الصلب ( Triticum durum) هو المزروع بهذه الجهات حتى قبل السيطرة الرومانية ويضم سلالات متنوعة جعلت دوكندول يرجح بأن يكون هذا القمح أصليا بأفريقيا الشمالية، بينما عرفت المناطق الجبلية ذات التربة الخفيفة انتشارا واسعا في زراعة الشعير. فالقمح الأفريقي دون شك قد اكتسب خصائصه التي حدثنا عنها القدماء من طبيعة المناخ المميز لأفريقيا وانتشار الري على نطاق واسع بالإضافة إلى التربة الخصبة التي تتميز بها أفريقيا خصوصا السهول الساحلية في جهات الأمبوريا والمزاق وحتى الواحات الصحراوية.

## 2- زراعة الزيتون :

كان الزيتون في القديم ذا أهمية كبيرة لدي جميع الشعوب خاصة شعوب البحر المتوسط التي اهتمت بزراعة هذه الشجرة والعناية بها أكثر من أيامنا هذه ، فقد كان الزيتون يمثل منتوجا استهلاكيا أساسيا ومصدرا وحيدا للإنارة النظيفة في تلك المرحلة، وقد حضيت هذه الشجرة بتقديس لم تحض به الأصناف الأخرى من الأشجار فقد اتخذته الشعوب رمزا للسلام.

إن زراعة الزيتون بمنطقة شمال أفريقيا ضاربة في القدم، فقد دلت على ذلك النصوص والرسومات الصخرية والآثار التي عثر عليها بمختلف أرجاء المنطقة، ولم تكن يوما فضلا رومانيا أو فينيقيا كما يدعي البعض، غير أن التوسع في زراعتها قد عرف تطورا ملحوظا خلال الفترة الرومانية بشكل أدهش الباحثين خاصة خلال أواخر القرن الثاني و وبدايات القرن الثالث الميلادي، وتنبغي الإشارة هنا إلى أن أفريقيا قبل هذه الفترة كانت قد سجلت محاولات في التوسع في زراعة هذه الشجرة ، فقد اخبرنا أوريليوس فيكتور ( Aurellus Victor) أن القائد القرطاجي هانيبال بعد إمضاء قرطاج لمعاهدة سنة 515ق.م مع الرومان قد وجه جنوده إلى استصلاح الأراضي وزراعة الزيتون لإلهائهم عن القيام بأي محاولة انقلاب أو إثارة فوضي في البلاد ويبدو أن الأباطرة الرومان قد شرعوا في تشجيع هذه الزراعة بعد الالتماسات التي رفعها الكولون إليهم والذين طالبوا السماح لهم باستغلال الأراضي البور وأراضي المستنقعات والأراضي التي تخلى عنها المساحون الرومان أثناء قيامهم بعملية كنترة الأراضي وذلك بزراعتها كروما وزيتونا كما ورد في عريضة عين الجمالة ونص جنان الزيتونة ، وهذا ما طور دون شك زراعة الزيتون بأفريقيا فربحت الزراعة بها مساحات إضافية ، ومن جهة أخري نشير إلى أن الإمبراطور هادريان كان قد أمر بان تصبح الأرض ملكا لكل شخص استصلحها حتى لو كانت ملكا لشخص أخر وان يدفع المستصلح النصف عن المنتوج إذا كانت الأرض ملكا للدولة ، وبهذا الإجراء يكون قد وفر الحماية القانونية التي تشجع المزارعين على استصلاح الأراضي وزيادة الإنتاج.

انتشرت زراعة الزيتون في عموم أفريقيا ، ويشهد على ذلك العديد من آثار المعاصر التي عثر عليها بالمنطقة، فقد لاحظ العديد من الباحثين إبان الحقبة الاستعمارية الفرنسية وجود هذه الآثار في مناطق هي اليوم مناطق صحراوية قاحلة لا تصلح للزراعة ، فقد أكد اغزال أن سهل بحيرة الأرنب الواقع جنوب تبسة كان خلال الفترة الرومانية سهلا تغطيه غابات الزيتون، أما الباحثة هنريات كامبس فقد لاحظت أن المناطق التي قدمت لنا اليوم العديد من آثار هذه المعاصر هي نفس المناطق التي وصفها سالوست بأنها مناطق جرداء وجافة ما يدل حسبها على أن الرومان هم

من قاموا بتوسيع هذه الزراعة إلى هذه المناطق غير أن هذه الباحثة قد غفلت بان هذه المناطق التي عثر بها على كم هائل من هذه المعاصر هي مناطق القبائل التي لم تخضع للسلطة الرومانية كإقليم قبائل الموزولام، فأمام الحاجة الملحة لها إلى الأرض بعد انتزاع الأراضي الخصبة منها لم تجد هذه القبائل من وسيلة أخري غير تكثيف الزراعة في المساحة المتاحة لها واستصلاح أراضي جديدة لذا من المجحف إرجاع كل الفضل للرومان في مسألة توسيع زراعة الزيتون، وفي نفس الإطار نتحفظ على استنتاج اقزال الذي اعتبر أن غابات الزيتون لا يمكن إلا أن تكون من انجاز الرأسمالين الكبار لأنه على حد تفسيره يتمتعون بالثروة والاكتفاء لذا يتركون أشجار الزيتون تنمو في هدوء ، عكس المزارعين البسطاء الذين تدعوهم الحاجة إلى زراعة الأنواع التي لا تستغرق وقتا طويلا للإثمار.

كان التوسع في زراعة الزيتون بالمناطق الجنوبية مدهشا نظرا لكون كمية الأمطار بها غير كافية لقيام هذه الزراعة ، فقد لاحظ باراداز وجود آثار لمعاصر رومانية في مناطق هي اليوم مناطق صحراوية، ولعل العامل الذي جعل من هذه الزراعة تصل إلى تخوم الصحراء هو تطور تقنيات الري الرومانية المستعملة بهذه المناطق وحسن استغلال الأمطار الموسمية ببناء جدران تحمي التربة من السيول في العديد من المناطق لمنع انجراف التربة ولتخزين المياه لاستغلالها في الري الزراعي، ولم تكتف روما بهذا فقط بل عملت على استغلال مياه العيون المتواجدة بها وفي هذا الشأن اخبرنا بلين عن التقسيم العادل لمياه العيون بين المزارعين في واحة قابس ( Tacapes) جنوب تونس.

لقد كانت زراعة الزيتون على العموم أكثر الأنواع انتشارا في أفريقيا بحيث شملت مختلف المناطق سواء الرطبة أو الجافة، وقد أكدت النصوص على هذا التوسع الكبير خلال الفترة الرومانية وعلى الاهتمام بهذه الزراعة الناتج من الأهمية الاقتصادية للزيت والاستعمالات المختلفة له التي جعلت من الأباطرة الرومان يشجعون زراعته.

## 3- زراعة الكروم :

بعد أن قامت الحكومة الرومانية خلال القرن الأول بتشجيع زراعة القمح لعدة أسباب كما ذكرنا ، فتحت ابتداء من القرن الثاني المجال أمام زراعة الأشجار المثمرة، والمعلوم أن روما قد شجعت زراعة الزيتون خاصة إلا أن هذا القرن كان قد عرف أيضا توسعا في زراعة الكروم أما باقي الأنواع الأخرى فهي لم تحض باهتمام كبير مقارنة بزراعة الزيتون والكروم، وهذا بطبيعة الحال لا يعني أن الدولة الرومانية قد أهملت زراعة الحبوب بل استمر الاهتمام بإنتاجها إلى غاية الفترات الأخيرة من السيطرة الرومانية وظلت أفريقيا الممون الرئيسي لروما بالقمح لقد كانت زراعة الكروم ذات أهمية كبيرة بالنسبة للرومان ولهذا فقد عمل أباطرتها على منع زراعتها بالولايات في البداية نظرا لتجارتها المربحة ، لكن بمرور الوقت منحت حكومة الإمبراطورية المزيد من الحرية للمقاطعات لكي تعمل على تنمية اقتصادها حتى تستفيد إيطاليا من خيراتها، ففي البداية سمحت الحكومة الرومانية بزراعة الكروم والزيتون فقط على القطع الأرضية الصغيرة غير الصالحة للزراعة أو الأحراش أو الأراضي التي لم تشملها عملية الكنترة أو في الأراضي غير المستغلة داخل المستثمرات الكبرى ، ونظرا للتجارة المربحة للنبيذ والزيت شجعت الحكومة السير في هذا الاتجاه وبهذا انتشرت بساتين الزيتون والعنب بمعدلات مذهلة خاصة ابتداء من القرن الثاني الذي عرف بأنه قرن الزيتون والكروم.
لقد وردت في النصوص التشريعية الأفريقية إشارات لزراعة الكروم التي تطورت بتطور الاستعمار والاستغلال ، فقد تحدث نص هنشير مطيش الذي يحمل بنودا من قانون مانكيانا Lex) ( Manciana الذي يعود إلى زمن تراجان عن زراعة الكروم حيث نص القانون على منع زراعة كروم جديدة إلا لتحل محل كروم قديمة، أما نص عين الجمالة الذي يعود إلى عهد هادريان فقد حمل إجابة من بروكيراتور الإمبراطور بخصوص طلب الكولون السماح لهم زراعة الأراضي غير المستغلة زيتونا وكروما لم ترد في كل النصوص المكتشفة ولو إشارة بسيطة إلى السماح بزراعتها في أراض خصبة جديدة أو في الأراضي التي اعتاد المزارعون زراعتها قمحا.
يبدو أن الكروم الأفريقية حسب ما يقدمه القدماء من شهادات كانت ذات خصائص مذهلة ، فقد اخبرنا سترابون عن عناقيد العنب العملاقة التي تتميز بها موريتانيا الطنجية أما بلين فقد ذكر أن بعض عناقيد العنب المنتجة بالمناطق الداخلية الأفريقية حجمها اكبر من طفل شاب وان الكروم الأفريقية لا مثيل لها في مكان آخر،فخلال تلك الفترة كانت الكروم الأفريقية حاضرة بقوة في الموائد وكان يصنع منه نبيذ ذو جودة عالية فحسب بلين دائما فان الأفارقة كانوا يستعملون الجير لخفض حموضته.

لقد انتشرت زراعة الكروم في عموم أفريقيا وخاصة بالمناطق الرطبة المحاذية للسواحل ، فقد توصلت الأبحاث التي أقيمت حول زراعة هذه الشجرة بأفريقيا إلى أنها تتطلب نسبة كبيرة من أمطار الخريف والشتاء حتى تتمكن من مقاومة حرارة الصيف، وقد اخبرنا بلين عن زراعة الكروم حتى في بعض الواحات الصحراوية تحت أشجار النخيل لتستفيد من ظلالها. كما دلت العديد من الصور الفسيفسائية على زراعة الكروم واستهلاك النبيذ بالإضافة إلى الأبحاث الأثرية التي زودنا بمعلومات قيمة حول تجارة هذا المنتوج ، فقد عثر على نوع من الجرار الخاصة بموريتانيا القيصرية التي يخزن فيها النبيذ تمهيدا لتسويقه، كما عثر بميناء اوستيا (Ostie) في حفريات أقيمت به على أنواع عديدة من هذه الجرار الأفريقية في طبقات مؤرخة ما بين(551-555م)، كما عثر بنفس الميناء على فسيفساء عليها صورة جرة تعود لنهاية القرن الثاني الميلادي.

إن زراعة الكروم بدون شك لم تتوقف في التطور بأفريقيا خلال الفترة الرومانية، فقد دلت عليها النصوص الأدبية والأثرية ، لكن من غير الممكن مقارنة أهميتها بزراعة القمح والزيتون فربما كانت زراعة ثانوية موجهة لإنتاج أجود الخمور وتزيين ارقي الموائد وفي نفس الوقت يجب أن نقر بأن تجارتها مهمة ومربحة يحرص الأباطرة المتعاقبون وكبار الشخصيات على احتكارها.